الباب الخامس
أثينـــة

الفصل الاول

بؤوتية هزيود

يتفرع الطريق فى شرق مجارا — فيتجه جنوباً إلى أثينة وشمالا إلى طيبة . والطريق الشمالى جبلى وعر يؤدى بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithacron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل پرنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتبسط سهل بؤوتية الخصيب . وعند سفح التل تقوم پلاتية حيث أفنى مائة ألف من اليونان ثلثمائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلا نجـــد لوكترا Leuctra حيث كسب أپامينونداس أول نصر عظـــيم له على الاسپارطيين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر «وهبكرين الحيية» التى تغنى بها كيتس Keats ، وهى الينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذى تؤكد لنا الأساطير أنه نبع منه الماء حين ضرب بجسوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء(1) . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثسبيا التى لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذى أبصر فيه نارسس خياله — أو خيال أخته الميتة التى كان يحبها على ما جاء فى قصة أخرى(2) .

وفى بلدة أسكرا Ascra الصغيرة بالقرب من ثسبيا كان يعيش ويكدح الشاعر هزيود الذى لا يعلو عنه فى حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد فى عام ٨٤٦ وتوفى فى عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالى ٦٥٠[٣] ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام[٤] . وكان مولده فى سيمى Cyme من أعمال إيوليا فى آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها فهاجر إلى أسكرا التى يصفها هزيود بأنها « بائسة فى الشتاء ، لا تطاق فى الصيف ، وليس فيها خير فى وقت من الأوقات »[٥] — كمعظم الأماكن التى يعيش فيها الناس . وبينا كان هزيود الغلام الراعى والعامل فى المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلا تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت فى جسمه روح الشعر فأخذ يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز فى المباريات الموسبقية[٦] ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه[٧] .

وإذ كان ككل شاب يونانى مولعاً بعجائب الأساطير ، فقد كتب(*) أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت غث تسرد أسر الأرباب وملوكهم ، وهى أنساب لا غنى عنها فى الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها فى التاريخ . وقد تغنى فى بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » فى الهبكرين[٧] . ثم وصف بعدئذ مولد العالم — لا خلقه — فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه فى بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين »؛ وكان الآلهة فى الدين اليونانى يعيشون إما على ظهر الأرض أو فى باطنها ، وهم على الدوام قريبون من الناس ،

(*) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البؤوتيين ممن عاشوا فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتابون فى أن هزيود هو مؤلف هذه الأنساب .

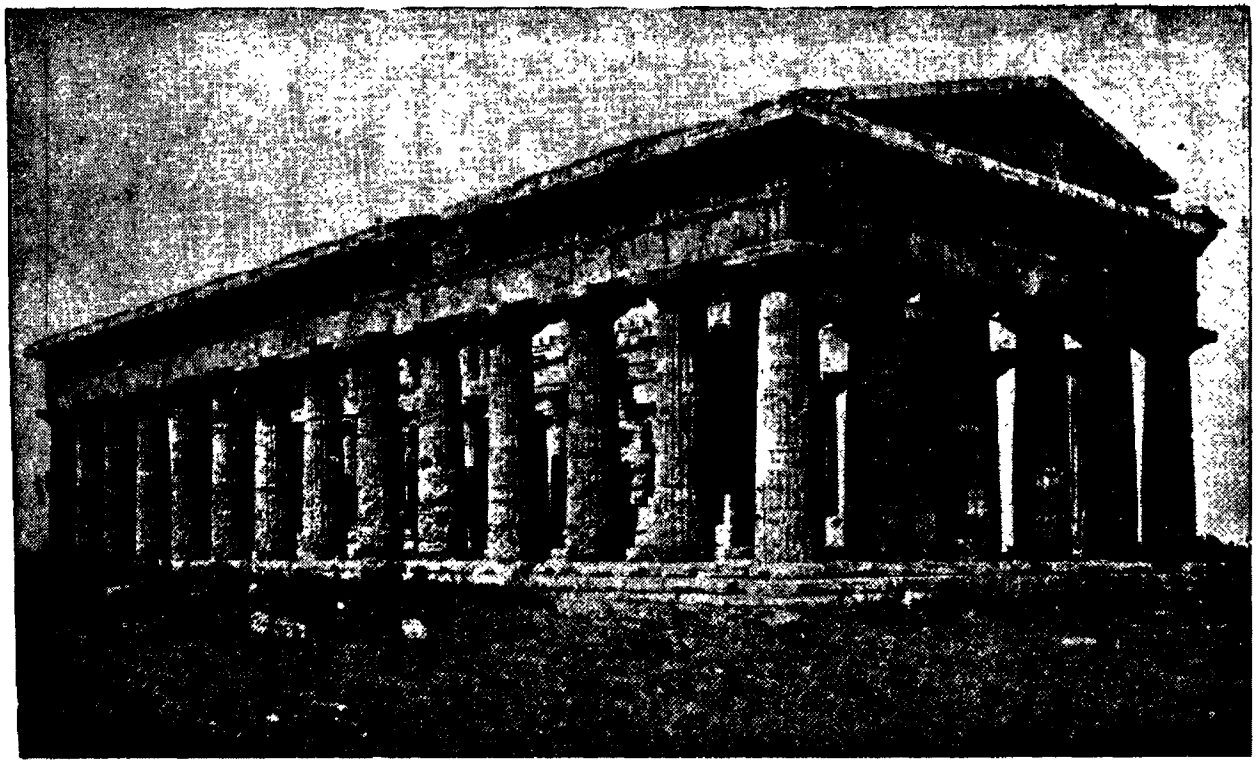

(شكل ٩) هيكل پوسيدن فى بيستم

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجمل الآلهة » كلهم[١٠] . وولد للعماء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ؛ وولدت الأرض الجبال والسماء ؛ وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يبدعون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود فى اللغة اليونانية أيام هزيود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم فى بادئ الأمر كان عماء ، ثم نشأت الأرض وما فى باطنها ، والليل والنهار والبحار ؛ وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شىء ولعل هزيود كان فيلسوفاً ألهم الشعر فأخذ يجسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ إمپدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين فى صقلية[١١] . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر فى أساطير هزيود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزاوج السماء (أورانوس) والأرض (چى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خمسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس يحبهم فقذف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهنة . فابتهجت « چى الضخمة بهذا العمل وأخفته فى كمين ؛ ووضعت فى يده منجلا ، مثلم الأسنان ، وأوحت إليه بالخطة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء محباً وإلهاً فاحتضن الأرض وامتد حولها فى جميع الجهات » . فلما رأى كرونس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع فى اليم ، ونشأت من نقط الماء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furias) ؛ ومن الزبد الذى

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفروديتى(*)[١٢] . واستولى الجبابرة على أولمپس ، وأنزلوا أورانوس (السماء) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhae ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأا بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرنس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً[١٣] .

هذه هى الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هى أساليبهم كما جاء فى أقوال هزيود . وهنا نجد قصة پروميثيوس البعيد النظر ، جالب النار ؛ ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة — ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملا خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هى القصص الشعبى الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكم منها من تأليف هزيود نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمپس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزيود فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قلل أولمپس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قوياً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هى قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسيوس ، وقد صوره فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعدو أن يكون تجسيداً أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

(*) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite فلا يعرف أصله على وجه التحقيق .

القصيدة : « والآن سأتحدث إليك أيها الأخ الأبله برسيوس ولا أبغى من حديثى إلا الخير لك[١٤] » . ويقول لنا هزيود إن برسيوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة فى التاريخ تصف فضيلة الجد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والخمول : « إن من أيسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكداساً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة الخالدين قد أقاموا فى سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلا وعراً . شاقاً فى بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلا بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل[١٥] » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الجدية ، ويحدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله فى أمثال فجة صقلها ثرجيل فيما بعد فى شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر برسيوس من عاقبة الإفراط فى الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بؤوتية القاسى فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجؤذر » والبحار والأنهار تضطرب مياهها بفعل ريح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تتساقط ، والحيوانات « ترهب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرها ومذادرها[١٦] ، وما أدفأ الكوخ الحسن البناء فى ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهى خير عوض للرجل مما سببته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى فى الزوجات ، وما من شك فى أنه كان أعزب أو أرمل ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ فى آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبتاً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مسامعنا قصص تلك الأيام التى كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر فى كتابيه الكبيرين فى اغتباط الحاقد الشامت أن معظم الشرور التى فى العالم من فعل پندورا الحسناء ، وأن زيوس لما غضب على پروميثيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحسناء جميلا كوجه الآلهات والمخلدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وآمر أفروديتى الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذى يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلا كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة فى جوفها صوتا جذاباً ؛ وسمى هذه المرأة پندورا لأن كل الساكنين فى البيوت الأولمپية قد أهدوا إليها هدية لتؤذى بها الرجال المبدعين(١٧) » .

ثم يقدم زيوس پندورا إلى إپميثيوس Epimstheus ؛ وقد حذره أخوه پروميثيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان پروميثيوس قد ترك مع إپميثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على پندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن پندورا ، كما يقول هزيود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديدات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنّهم على التخمة ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى(١٨) » .

ثم يقول الشاعر المذبذب بعدئذ فى حسرة ولوعة إن العزوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أيما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فإن من مصلحة الرجل أن

يتزوج — وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد — وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخير سن الزواج هى سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التى تهدى إليك فتاة من جيرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسىء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضى كل وقتها فى الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذى أنهكته المتاعب ، وتشعل النار فى عظامك القوية التى فى داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال فى عنفوان الشباب[١٩] » .

ويقول هزيود إن الجنس البشرى عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئات من السنين يرسل فى حلل السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولا فى أيام كرونس (ستورينا فى شعر ڤرچيل) جيلا ذهبياً كانوا كالآلهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلئها قطعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت آخر الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة فى نزوة من نزواتهم القدسية جيلا فضيا أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفراده فى نموهم إلى مائة عام ، فإذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلا يدركهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلا نحاسياً ، رجالا أعضاؤهم وأسلحتهم وبيوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « سلط عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا فى طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم فى جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجبل الحديدى ، وهم خلق أدنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكدحون بالنهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلهة ويبخلون عليهم ، كسالى مشاغبون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يثق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود فى حسرة : « ألا ليتنى لم أولد فى هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتمنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجيل الحديدى فى باطن الأرض(٢٠) .

هذا هو اللاهوت التاريخى الذى يفسر به هزيود ما فى زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه الشرور بعينيه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك فى أن الماضى الذى ملأه أبطالا وآلهة كان أنبل وأجمل من هذا الجيل ؛ ولسنا نرتاب فى أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم فى بؤوتية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التى ينتمى إليها قد أثرت فى نظرته ، وأن آراءه فى الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التى تطالعنا فى شعر هومر ، وهى صورة إن كان فيها الإجرام والفزع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن ومضة من الجمال تمحو آلافا من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، ويغضب من وقاحة النساء اللائى يجلسن حول المائدة مع أزواجهن(٢١) . ويكشف لنا هزيود فى صراحة فظة عما كان فى المجتمع اليونانى القديم من انحطاط قبيح — عن الفقر المدقع الذى كان يعانيه رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمراء للأشراف من الرجال والنساء ، أما هزيود فلم يكن يعرف أمراء ، بل كان يتغنى فى قصائده بالسوقة من الرجال ويوائم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع فى شعره إلى قعقعة ثورات الفلاحين التى أنتجت فى أتكا من بعد إصلاحات صولون وطغيان پيسستراتس(*) .

لقد كانت الأرض فى بؤوتية ، كما كانت فى البلوپونيز ، فى حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون فى المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كپسيس Capsais ، وهى الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمد بالماء شبكة معقدة من قنوات الرى وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب فى أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon فى إپيروس الذى أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قيرونيا Chaeronia (وبقربها قضى فليپ على حرية اليونان) ، وطيبة عاصمتهم فى مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركمنوس العاصمة المينياوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها فى أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طيبة فى اتحاد بؤوتى يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الحلف يختارون فى كل عام ، ويحتفـــل أهله مجتمعين فى كورونية Coronea بعيد الجامعة البؤوتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البؤوتيين ويتهموهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم فى الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار — كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سواء بسواء . وقد

(*) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو فى سن الثلاثين أغوى العذراء كليمينى Clymene ؛ وإن أخاها قتله وألقى بجثته فى البحر ؛ وإن كليمينى حملت منه بابنه الشاعر الملحمى استسيكوروس Stesichorus وهو الشاعر الذى ولد مع ذلك فى صقلية » .

يكون فى هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البؤوتيين يضطلعون فى تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلا قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة فى جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع فى الكفة الأخرى — كفة الحسنات — أبطال پلاتية الشجعان الأوفياء ، ونضع هزيود الكادح المثابر ، وپندار الذى بلغ السماكين ، وأپاميننداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

الفصل الثانى

دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قيرونيا مدينة أفلوطرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثنى عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة . وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسيا Crisaea الذى تتلألأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل يمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تتهادى فى بطء وصمت فوق المياه الساكنة الخداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح بنبع كستاليا Castalia فى خانق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا إيسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة (وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته) ؛ كما يروى التاريخ أن فلوميلوس Philomelus الفوقى Phocian طارد اللكريين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة(*) الثانية(٢٣) . ومن فوقها قمتا پرنسس التوأمتان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هِلِكُن . ولم يكن اليونان الذين يتسلقون مئات

(*) لقد أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكل أپلو أولاهما من ٥٩٥ إلى ٥٨٥ وفيها قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة للهيكل من إتاوات باهظة على الحجاج المارين بثغرهم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ ، فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياد دلفى وإلى إقامة الألعاب البيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن خضعت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل — متزنين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التى يكسوها الضباب من جهة والبحر الذى تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهوالها — لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون فى أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض فى هذا المكان وقذفت الرعب فى قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام فى قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى فى قلوب الغالبيين النهابين ؛ وكانت الزلازل فى اعتقاد اليونان من فعل الإله يحمى بها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمون هذا المكان من أقدم الأزمنة التى تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا فى الرياح التى تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التى تنبعث من باطن الأرض ، صوت إلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التى تكاد تسد الفتحة التى تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها فى اعتقاد الأهلين ، ومن ثم كانت هى سرة العالم أو أمفالوسه omphalos كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم لحى أمهم الأرض فى الأيام القديمة ، ثم لأپلو مالكها الأزهر فيما بعد . وكانت تحرس الأخدود فى الزمن القديم أفعى رهيبة فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس Phoebus بسهم وأصبح هو أپلو البيثين الذى يعبد فى هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران فى عام ٥٤٨ هيكلا قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكميونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتتبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقلما رأت بلاد اليونان ضريحاً مثله من قبل . وكان طريق مقدس ملتف حول الجبل يؤدى إلى المزار ، ويزدان فى كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أى الهياكل الصغيرة التى أقامها عند تخومه المقدمة (فى أولمپيا ، ودلفى ، وديلوس المدن اليونانية) لتودع فيها أموالها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع فى دلفى ؛ وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيرينى ، وأقامت أحسن منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفى وسطها كلها شيد ملهى مواجه لجبل پرنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان فى اليونان أصلا من الأصول الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر إليهم وهى عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفى وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان فى عيد أپلو ، فنصور لأنفسنا الحجاج المتحمسين يزحمون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، وتغص وبهم وبصخبهم وضجيجهم النزل والخيام التى أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم يمرون فى حذر وارتياب بين الحوانيت التى يعرض فيها التجار الماكرون بضاعتهم ، ثم يصعدون فى مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أپلو يطلبون إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ، أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويجلسون خاشعين فى الملهى ، ثم يصعدون فى خطى ثقيلة متعبة تبلغ الخمسمائه عدا ليشهدوا الألعاب البيثية أو ليتطلعوا فى دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا النهج المليء بالحمية والحماسة .

الفصل الثالث

الدول الصغرى

كان الأهلون فى الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس فى لكريس Locris ، وإيتوليا Aetolia ، وأكرنانيا Acarnania ، واينيانيا Aeniania ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة الجارف ، لا يجدون متسعاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والملهى العزيزين على أنكا لم يجدا لهما مواطناً فى هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يجملها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم فى فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا Amphissa فى لكريس ، أو نوبكتوس Naupactus الإيتولية ، أو كليدون Clydon الصغيرة حيث صاد مليجر Meleager فى يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا Atalanta(*) . وعلى الساحـــل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون Messolongion أو مسولنجى Messolongi حيث

(*) دمر خنزير برى حقول كليدون فانبرى له مليجر ابن مليكها إنيوس . ودبر أمر صيده مستعيناً بثيوس ، وكاستر ، وپلكس ، ونسطور ، وجيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخطو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ومليجر قتله . وتزاحم الخاطبون على أطليطا فى بيتها فى أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لايستطيع أن يسبقها . واستطاع هيومينيس Hippomenes أن يسبقها بأن ألقى فى طريقها وهو يعدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفروديتى من الهسپريديز Hesperides ، فوقفت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفى وسع القارئ أن يطالع على حب مليجر الحق لأطلنطا وموته المفجع فى قصيدة سوئبيرن Swinburne المسماة « أطلنطا فى كليدون Atalanta in Clydon » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقُتل بيرن Byron ؛ ويجرى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر فى بلاد اليونان — نهر أكلوس الذى اتخذه اليونان ذوو الخيال الخصب إلهاً لهم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه فى إپيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه فى دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون فى العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هلينز وهو الاسم الذى سمى به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التى لا تخضع لغير الهوى . وفى اتجاه الشرق يقع ممر ترموپيل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وممره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالى Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثريس Othrys ويخترق آخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفيها عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات پمپى ؛ وليس فى بلاد اليونان كلها إقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولا ، أو أفقر فنوناً . وتجرى فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها فى نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال مخترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحت بين قمم أسا Assa وأولمبس وادى التمپى (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر فى الزمن القديم مدن كثيرة — فيرى ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

(*) Elatea, Gyrton, Larisa, Frica, Crannon, Pherae

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا فى أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قلل البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم پيريا Pieria التى كانت موطن ربات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أسًا Ossa إلى پليون Pelion .

وتمتد جزيرة عوبية العظيمة Euboea مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخلجان الداخلية ومياه بحر إيجة الخارجية ، مبتدئة فى عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة فى كليس تكاد تصلها ببوئوتيـــة . والعمود الفقرى للجزيرة سلسلة جبلية هى امتداد لأولمپس ، وپليون ، وأثريس وتنتهى بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا فى أيام غزو الدوريين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين فى عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التى تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پيريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عوبية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء كلسيس والأصل الذى اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتا ما أهم مراكز الصناعات المعدنية فى بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التى لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التى بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كلسيس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية فى تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكاييل العوبى أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كلسيس الهجائية التى أخذتها رومة عن كومى الإيطالية مستعمرة

(*) وهى التى وردت فى نصيحة ألكسندر پوپ الحكيمة التى يتضمنها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار
فإما أن ترتوى منه وإما ألا تمس النبع البيرى(٢٤)

عوبية ، كما أضحت هذه الحروف فى صورتها اللاتينية هى الحروف الهجائية لأوربا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرثريا منافستها القديمة حيث أنشأ منديموس Meredemus أحد تلاميذ أفلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرتريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر أسماهما واضحين فى تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبر الخشبى الذى أنشئ فى عام ٤١١ ق . م مضيق يوريبوس Euripus عائداً إلى بؤوتية . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب على الساحل البؤوتى تقع بلدة أويس الصغيرة حيث ضحى أجمنون بابنته للآلهة . وكانت تعيش فى هذا الإقليم فى يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هى قبيلة الجرايس التى أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشئوا مستعمرة كومى بالقرب من نابلى ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذى أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الجراكى (الإغريق)(*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسما لم يسم أهلها بلادهم به فى يوم من الأيام(٢٥) . وإلى جنوب أويس تقوم تنجارا Tangara التى كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من بندار حوالى عام ٥٠٠ ق . م . والتى صنع خزافوها فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة فى التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفى وسعنا إذا وقفنا على قلل جبال پارنيس أن نبصر تلال أثينة .

(*) وقد فعل العرب بهم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . (المترجم)

الفصل الرابع

أتِكا

١ - ما حول أثينة

إن الجو نفسه فى هذا الإقليم يختلف عنه فى الإقليم السابق - فهو هنا نظيف ، بارد ، مضيء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثمائة يوم ذات شمس ساطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أثينة الصافى الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر فى حدة عقول أهل أتكا[٢٦] » . ويسقط المطر فى أتـــكا فى الخريف والشتاء ، وقلما يسقط فى الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الثلج فى أثينة مرة واحدة فى العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أوخمساً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها[٢٧]. والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ؛ وكانت الأراضى المنخفضة فى الزمن القديم ذات مناقع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة[٢٨] . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض فى كل مكان تقريباً ، وهـــذا القرب يجعل الزراعة كفاحاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة(*) ؛ ولولا التجارة التى تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التى تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة فى أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة فى هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهى تطالع الإنسان فى كل مرفأ على الساحل ، وفى كل واد

(*) يقول توكيديدس إن « أتكا نجت لفقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (؟) والغزو الأجنبى » .

بين التلال ، فقد استقر فى أتكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجرى الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين — وهم مزيج من البلاسجيين الميسينيين والآخيين[٢٨] — الفارين من بؤوتية والبلوپونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهيلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصلية[٢٩] ، ويصدون عن قدسها القومى ، الأكروپوليس ، الدوريين نصف الهمج الحديثى العهد بالثقافة اليونانية[٣٠] .

وكان نظامهم الاجتماعى مستمداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمى إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون فى حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون (حاكم) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضى العامة ، ويستمتعون بحق التزاوج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدفاع ، ويوارون التراب آخر الأمر فى مدافن القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أتكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم[٣١] . وكان تقسيم المجتمع الأتيكى هذا التقسيم القائم على صلة القربى مما يسر تنظيمه الحربى وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطر كليستنيز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع اقامة نظام دمقراطى فى البلاد .

ويغلب على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت فى الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى

تعبده ، وكانت هذه هي الحال فى أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا من بؤوتية الشرقية التى أولا بأوروبوس Oropus وانطبعت فى ذهنه صورة غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع لها السائح ارتياعه من أية بلدة مثلها فى هذه الأيام . ويصفها ديكى آركوس Dicacarchus حوالى عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروپوس معشش للبائعين المحتالين . وموظفو الجمارك فى هذا البلد شرهون شرهاً لا يدانيه شره سواه ، وخستهم متأصلة فى لحمهم وعظامهم . ومعظم أهله أغلاظ ، شرسو الطباع ، لأنهم أطاحوا بروؤس المؤدبين الظرفاء من الأهلين »[٣٢] . وإذا اتجه السائح من أوروپوس نحو الجنوب التقى فى الزمن القديم بسلسلة من البلدان المتقاربة ؛ رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Deceleia (وهى مكان ذو موقع حربى حصين اشتهر فى حرب الپلوپونيز) ، وأكارنى Acharnae (موطن ديسپوپوليس Dicaepolis داعية السلام الشرس فى مسرحيات أرستفنيز) ، ومراثون ، وبروررونيا Brauronia . وفى الهيكل العظيم الذى كان قائماً فى هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتميس الذى جاء به أرستيز وإفيچينيا من كرسنيز Chersonese فى طوروس Taurus ، وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا ليشتركوا فى حفلات التقى والدعارة المعروفة باسم بروررونيا أو عيد أرتميس[٣٣] . وبعد هذا يلتقى السائح براسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ، ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذى تستخرج الفضة من مناجمه ، والذى كان عظيم الشأن فى تاريخ أثينة الاقتصادى والحربى ؛ ثم يلتقى فى طرف شبه الجزيرة بسونيوم Sunium التى شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدى به الملاحون ويوفون فيه بنذورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربى (لأن نصف أرض أتكا سواحل ، واسمها نفسه مشتق من أكتيكى Aktike أى أرض

السواحل) ، يمر المسافر بأنافلستوس Anaphlystus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis (*) موطن إچاكس ويورپديز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود آخر الأمر الى پيريس (پيريه) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذى ظل مهملا حتى كشف ثمستكليز فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جدب تربة أتكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانى الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أتكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم وقوة ابتكارهم أسواق بحر إيجه ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، فى عصر پركليز .

٢ — أثينة فى عهدها الأركى

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين فى نظام سياسى واحد وجعل لهم عاصمة واحدة(**) . ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من پيريس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وپنتلكوس Pentalicus وپارنس Parnes ، حول الحصن الميسينى القديم . وكان جميع ملاك الأراضى فى أتكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكا هى التى تحفظ التوازن بين ذوى السلطان فى البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

(*) وأكبر الظن أن الفينيقيين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أى السلم ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

(**) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أتكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٠٠ ، وذلك لأن نشيد دمتر « الهومرى » الذى وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث عن إليوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها(٣٦)

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستمساك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus ميتة الأبطال مضحياً بنفسه لصد الدوريين الغزاة(*) أعلنوا (كما تروى القصة المتواترة) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا (حاكما) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفى عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة فى عام ٦٨٣ . وفى هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكا ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشترعين . وحدث هنا ما حدث فى اسپارطة وروما ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الدمقراطية ؛ بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ما كان يحدث فى التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ما كان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك فى الدستور الأثينى حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عليها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماؤها دون تغيير .

وظل « الحاكمون الشريفو المحتد » (Eupatrid Oligarchs) يحكمون أتكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان (Rippes) الذين يملكون الخيل(**)

(*) والراجح أنها حادثة خرافية ترجعها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .

(**) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المهذب كما كانت الحال عند الفرسان الرومان equites والفرنسيين Chevailiers والإنجليز Cavaiers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان فى الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال المأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان فى عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء فى البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع فى نسيم المساء العليل على الأريوپاجوس Areopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوپاجوسى فى عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الأرستقراطية كان له مثل ما لنظيره فى رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان[٣٦] .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المحتد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقيمون فى المدن بينا يقوم العبيد والعمال المأجورون بزراعة أملاكهم فى الريف ، أو اتجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . ويلى هؤلاء فى الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتحررت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالتها فى عهد صولون وپيسستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها فى عهد كليستنيز وپركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا فى ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا[٣٧] . وكان أفقر الأهلين عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين ينتزعون القوت من التربة الضنينة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون فى أيامهم الخالية أراضى واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتقسمت هذه الأرض ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالا سريعاً ، كما كانت الأسوار والخنادق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . . وكلما صغرت مساحة الأراضى التى يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم — رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يحرمون بسببه من حقوق — ونزحوا إلى أثينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشتغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل لتزامات الملكية ، مستأجرين لضياع الأشراف hectemoroi ، أوعاملين فيها لقاء نصيب من غلتها[٣٨] . وظل غيرهم فى أرضهم يكافحون ، يقترضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنوهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقى حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لوحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية[٣٩] . وتضاءلت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « وأصبحت كل الأراضى ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبناؤهم لأن يباعوا بيع الرقيق » لا فى داخل البلاد فحسب بل فى خارجها أيضاً ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون[٤٠] . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أبقت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤدوه ثمناً للسلع المصنوعة التى كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لا سلطان لهم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالى السنين . وإذا ما أجدبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك فى أتكا درجة رحب معها الأهلون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدى إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدى حتما إلى قلة الأفواه التى تتطلب الطعام(٤١) .

وفى هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التى لا يقف فى وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً(٤٢) . وبلغ الجهد العضلى من الرخص حداً أصبح معه كل القادرين على ابتياعه يترفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوى غلا وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون فى خارج البلاد الحبوب التى يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاما لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثينيين أنفسهم تطبيقا لقانون الديون(٤٣) .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشرع ثسموثيتى Thesmothete حوالى عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكا ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة فى تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما نجده من تقدم فى قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لهم الحق فى أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل الغضب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوسى بعدئذ صاحب الحق فى النظر فى جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدمياً ؛ ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يقنع ذوى الثراء بقبوله وبأنه أقسى من كل ما يستطيعون فرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذاك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسى الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو ضروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع فى شرائعه ما كان فى نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقوياء للضعفاء ؛ ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام المحتد (اليوپترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق فى أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف(٤٤) . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخى فى العمل ، يعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين(*) بالإعدام(٤٥) .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقترب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمى النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة فى أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلابد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها فى الفقر الشامل الذى تؤدى إليه الحرب الاجتماعية والذى لا يميز بين من كان فى الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا رفيقين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهى بأن يكون نظاماً مهلكا مبيداً . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت فى الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت فى حال تخشى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجيها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية »(٤٦) . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(*) « كان الذى يسرق كرنبة يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو ينتهك حرمة الهيكل » صولون لأفلوطرخس .

فزمام الحكم والجيش فى أيدى سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضى فى كل نزاع فى غير مصلحتهم[٤٧] — فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة[٤٨] . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملاكهم[٤٩] ، لجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا لحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لا يهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدِّين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

٢ — الثورة الصولونية

قد يبدو عجيباً بعيداً عن المعقول أن يقوم فى هذا الدرك الذى تدهورت إليه شئون أثينة والذى يتكرر كثيراً فى تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجيباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مريرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسووا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصاديا جديداً خيراً من النظام السابق ، بقى ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التى تبعث الشجاعة والأمل فى النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دما ، ينتهى نسبه إلى الملك كدروس ، بل إنه كان يتبع نسبه إلى پوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم پيسستراتس الطاغية الذى خرق دستور صولون فى أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمه . وقد انغمس صولون فى شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذ « الصداقة اليونانية[٥٠] » ، وفعل ما فعله ترتاتوس Tyrtaetus فأثار حماسة

الناس بشعره ودفعهم إلى فتح سلاميس[٥١] . ثم صلحت أخلاقه فى سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائحه جيدة . انظر مثلا إلى قوله فى أشعاره : « إن الكثيرين من الناس أغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكنا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فإنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته ورئتيه وقدميه ، وهى الأعضاء التى تأتيه بالسرور ولا تأتيه بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفتى أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام[٥٢] » . ولما حدث فى أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياد ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحيطة جريمة[٥٣] ، ولكنه لم يتردد قط فى التشهير بالوسائل التى سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعهم إلى أخضان الفاقة[٥٤] . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطرخس فإن والد صولون قد « بدد ثروته فى التصدق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذا مصالح كثيرة فى أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل فى بلاد بعيدة ، وكان يسير فى عمله على المبادئ التى يدعو إليها فى قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً — فى الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين — حين أقبل عليه فى عام ٥٩٤ ممثلو الطبقات الوسطى يدعونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم teponymos ، على أن يمنح سلطة مطلقة لإخماد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهى كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المتطرفين بإحجامه عن إعادة تقسيم الأراضى . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى الفوضى التى تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكثيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغى كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة[٥٥] » ، وهكذا حرر أراضى أتكا من جميع الرهون بجرة قلم ؛ هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من بيعوا رقيقاً فى خارج البلاد وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرم مثل هذا الاسترقاق فى المستقبل . وخليق بنا أن نذكر من خصائص الخلق فى هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعتزمه من إلغاء الديون فاشتروا أراضى واسعة مرتهنة ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ؛ ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمى بأن هذا كان منشأ ثروات طائلة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمنة لا يذكرها الناس لقدم عهدها[٥٧] » . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشىء الكثير[٥٨] . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان فى حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن سماع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أتكا من الثورة[٥٩] .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثاً يقينياً واضحاً . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقود الفيدونية « Pheidonian » — أى النقود الأجنبية التى كانت مستعملة فى أتكا حتى ذلك الوقت — « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina(*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين[١٠] » . ويقول أفلوطرخس فى بيانه عن هذا الإصـــلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطاليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التى تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان فى هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين[٦١] » . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هوالذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة ينقذ بها المدينين دون أن يلحق الضرر بالدائنين — إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى فى بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله(**) .

وكان أبقى من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التى أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لها صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفى منها لجرائم سياسية إذا لم تكن هذه الجرائم هى محاولة اغتصاب مقاليد الحكم فى البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمنيا معظم شرائع دراكون ؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتلة[٦٣] وقد طبقت قوانين صولون

(*) انظر قيمة العملة الأتيكية فى الفصل الثالث من الباب الثانى عشر من هذا الكتاب .

(**) فسر جروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض العملة بمقدار ٢٧٪ من قيمتها فتيسر لأسر الملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدينين وحرموا من فوائد الرهون التى كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم لو أنه قد حصل لكان ضربة ثانية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا الجار أموالا ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين ألغى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط فى تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر التجاره مع بلاد البلوبونيز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد الغربى مستعملا فيها[٦٣] .

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقيدين بقيود واحدة تفرض عليهم عقوبات واحدة . وإذ كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتى التجار والصناع ، ورغبة منه فى أن يجعل لهم حظاً فى حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل bushel(*) وهم الذين يصل دخلهم السنوى إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها pentacosiomedemni(**) ، والثانية هم الهبي hippes الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتاى zeugitai الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة الثيتى hetes وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدى من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانيه ؛ يضاف إلى هذا أن الضرائب التى تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوى اثنى عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أى أن ضريبة الأملاك كانت فى واقع الأمر ضريبة دخل تصاعدية(٦٥) . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة (المباشرة) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هى التى يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان فى الجيش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل فى فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود احاديين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

(*) البشل مكيال إنجليزى يعادل ثمانية جالونات .

(**) كان المدمنس medimnus — المعادل لبشل ونصف تقريباً — يعد مساوياً فى قيمته النقدية للدرخمة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأرستقراطية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ « التمقراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو المنزلة ، ويحددهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم « پلوتوقراطى (يتولاه المثرون) » شبيه بهذا الحكم منتشراً خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبقى دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوپجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يمتاز به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة[٦٦] . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مؤلفاً من أربعمائة عضو يلى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعدها . ووضع صولون فى منزلة أدنى من هذا النظام الأرستقراطى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمة دمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكليزيا Ieklesia (الجمعية) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشاتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسمائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوپجوس ؛ وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيليائيا heliaea ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التى تنظر فى جميع القضايا عدا قضايا القتل والخيانة ، والتى يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس فى هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد إدخال الغموض على قوانينه ليمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين الحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين[٦٧] » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الدمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قررتها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملاكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاء نفسها لقبيلته[٦٨] . فبقوانين صولون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذ كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنية لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقيموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة[٦٩] . ويرجع الفضل فيما نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون — لا إلى من جاء بعده من الأثينيين .

ولم يحجم صولون عن التشريع فى ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن يسمح للرجل الذى يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية بطلب[٧٠] ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاة ضريبة ، وأنشأ مواخير عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكلا لأفروديتى پندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلندى المعروف فقال : « مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لخير المدنية ، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء الشبان فضليات النساء ونشروا فى المدينة الفساد والاضطراب[٧١] » . وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ، وهى عقوبة أقل كثيراً مما فى قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائنات العرائس ومهورهن لرغبته فى أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل بين الزوجين والرغبة فى النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل ، وكان فى ثقته بقدرته على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال فى ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامرهم ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه لم يجب هذا الطلب وقال فى تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل الحمل[٧٢] » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء فى الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفى ساحات الألعاب ؛ ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك ألسنة الناس فى أثينة حيث كانت الغسة والنميمة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الدمقراطية

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياد فى أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدى إلى خراب الدولة . وحرم الاحتفالات الفخمة ، والقرابين الكثيرة النفقة ، والندب الطويل فى الجنائز ؛ وحدد مقدار ما يدفن مع الأموات من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذى ظل مصدراً لبسالة الأثينيين أجيالا طويلة وهو القانون الذى فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون فى الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها فى ساحة الأركون الدينى (أركون باسليوس) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدّع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحمورابى ، ونحوما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل فى حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكما بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مُقام جميل حقا ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه[٧٣] » . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس فى الملك وفى السلطان ، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكرسيس Anachrsis ، الحكيم السكوذى صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستوره الجديد وقال فى ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحمقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن فى وسع الأقوياء والمهرة أن يحوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه ببيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما فى شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثينيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سننت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطَوه » — أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة فى أثينة بأن تقبله كلها فى ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحا من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستچيرى Stagirite . وتعزو إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أپلو فى دلفى وهو me ienagan أى لا إفراط فى شيء[٧٥] ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخير شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعه من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعه كانت لا تزال نافذة فى أثينة[٧٦] . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكام ، ويطيع الحكام القوانين[٧٧] » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأثينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالا طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب البلوپونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشـــدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر[٧٨] . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشيط

الذى أصبحت أثينة بفضله الزعيمة التجارية فى بلاد البحر المتوسط وكانت أرستقراطية الثراء الجديدة ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التى تمت فى العصر الذهبى .

ولما بلغ صولون فى عام ٥٧٢ سن السادسة والستين آثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها موظفوها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين[٧٩] ؛ وسافر بعدئذ ليطلع على حضارة مصر والشرق ، ويلوح أن ذلك الوقت هو الذى قال فيه قالته الذائعة الصيت — « إنى لتكبر سنى وما فتئت أتعلم »[٨٠] . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ فى عين شمس (هليوپوليس) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التى قص قصتها فى ملحمة لم يتمها ، افتتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتى عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التى غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له[*] . ويصف هيرودوت[١٨] أفلوطرخس حدثه مع كروسس ملك ليديا فى سرديس — وما أقوى ذاكرتهما التى أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث — فيرويا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المنقطعة النظير مزدانا بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلا : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهى حكمة مرحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر فى البلايا الكثيرة التى تكتنف الناس فى جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

(*) يقص ديوجنيز لير تيس هذه القصة عن صول فى قليقية — وهى البلدة التى كان احتفاظها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً فى وجود لفظ **solecism** ومعناه الخطأ فى الكلام أو خرق حرمة الآداب .

ينأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما نتمتع به فى وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد تتبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتى بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن فى وصف الرجل الذى لا يزال فى منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما فى تتويج المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال فى حلبة الصراع(٨٢) .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هبريس hybris — أى الرخاء الوقح — لينم عن حكمة أفاوطرخس الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت فى ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين فى أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك فى أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما فى هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس فى عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل (إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت فى ألفاظ دانتى) وهو فى بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان فى تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة ليلاقى فيها الموت ، شهد فى آخر أيامه القضاء على دستوره ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً فى ظاهر الأمر فحسب .

٤ — دكتاتورية پيسستراتس

لما غادر صولون أثينة — عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة فى طبيعتها . وكان فيها ، كما كان فى أيام الانفعالات الشديدة فى الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » ويتزعمه تجار الثغور الذين يميلون إلى صولون ؛ و « السهل »

(شكل ١٠) مرهرية عليها نقش يمثل أتيا وهرقل
(متحف اللوفر بباريس)

ويتزعمه ملاك الأراضى الذين يكرهون صولون ؛ و« الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لايزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضى . ورضى پيسستراتس ، كما رضى بركليز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولا . وكشف فى إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إنه أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريبه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو فى جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأثينيين : « يا رجال أثينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غدر پيسستراتس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم لخوفهم يسكتون عنها[٨٣] » . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلا ، غير أن پيسستراتس لم يكتف بخمسين — بل جمع أربعمائة ، واستولى على الأكروپول ، وأعلن نفسه حاكما بأمره . ونشر صولون على الأثينيين رأيه فيهم فقال إن « كل واحد منكم يمشى وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزا[٨٤] » ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

واتحدت قوات أصحاب المال من حزبى الشاطئ والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن پيسستراتس اصطلح مع حزب الشاطئ سراً ، وعاد إلى أثينة فى ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون فى عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطئ قد غض الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء مدرعة بدرع أثينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس فى مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش پيسستراتس إلى المدينة ، بينما كان المبشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميتها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت فى هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك فى أن هذه المرأة هى الإلهة نفسها ، فخروا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة پيسستراتس[٨٥] » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد فى عام ٥٤٦ . وهزم الجنود الذين سيروا لقتاله . وبقى فى هذه المرة حاكما بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخططه الحكيمة فى خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التى استولى بها على أزمة الحكم .

وكانت أخلاق پيسستراتس مزيجا نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفاية الإدارية ، والجاذبية الشخصية . وكان فى وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم دون ما تردد ؛ وكان فى مقدوره أن يعيش فى أكثر التيارات الفكرية تقدماً فى أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد فى الهدف وإحجام عن البت فى الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيما فى أحكامه ، كريماً فى معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلا ، وسار فيه سيرة السياسى لا سيرة الرجل الظالم المستبد »[٨٦] . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الجدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيه ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر فى المدينة التى لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة ، حتى أصبح من الأقوال التى تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبى .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يرين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال

(شكل ١١) مزهرية پورتلند
(المتحف البريطانى)

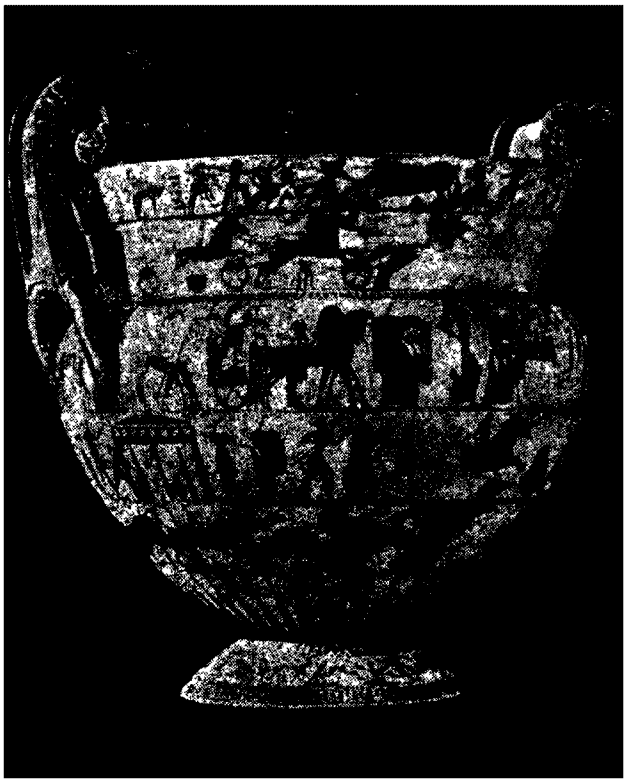

شكل ١٢) مزهرية فرانسوا
(متحف الآثار بفلورنس)

الدمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعمائة ، ومجلس شيوخ الأربوپجوس تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما جد أن اقتراحات پيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكى إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفى آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أثينة كانت بعد صولون فى حاجة إلى رجل مثل پيسستراتس أوتى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان فى الحياة الأثينية من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه فى بادئ الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكل العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسباه الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتوريه بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقى معها الإطار الخارجى لدستور صولون ، لترثهما الدمقراطية . فكأن پيسستراتس لم يأت ليمحو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأرض الزراعية آلاف من الأثينيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أتكا بعدئذ قروناً طوالا لا نسمع فيها عن تذمر بين الزراع[٨٧] . وأوجد عملا للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من المجارى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآلهة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم **Laurium** ، وسك

للبلاد عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة فى المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة فى المائة (٨٨) . ووضع مشروعاً لإقامة مستعمرات فى النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة فى أيامه رواجاً عظيما ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ؛ وامتنع تركيز الثروة الذى كاد يقذف بالمدينة فى أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للدمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسما وعقلا فى أيام پيسستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة فى المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليونانى ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، ومتليني ، وسرقوسة ، فى الثروة والثقافة ، والحيوية والنتاج العقلى . أما فى أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروپول بأن ضم إليه رواق دورى الطراز ، وبدئ العمل فى هيكل زيوس الأولمپى الذى تزين أعمدته الكورنثية الفخمة ، حتى وهى محطمة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفئها . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيما ، فضلا عما بعثه فيها من النشاط رؤيتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفى أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليونانى كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحدى أمامنا على إفريز البارثنون . وقد أقبل على بلاطه ، بفعل منشآته العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع فى قصره مكتبة من أولى المكتبات التى أنشئت فى بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

تعرفهما بهما الآن . وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسپيس وغيره من الكتاب بالتمثيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » پيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية النشيطة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسعى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أيدى الملاك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة مؤقتاً مع الطبقات الفقيرة(*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيد قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . وإذ لم يكن للفقراء بد من أن يختاروا بين المال والحرية السياسية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تشذب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسبيل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فما على من يريدها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى(٨٩) . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان ألغى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء لينول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيد قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه الجماهير إلى جانبه

(*) والكلمة الإنجليزية **tyrant** أى المستبد أو الطاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم ترها **Tyrrha** المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلعة ، ولعله ذو صلة بعيدة بلفظ **Tower** الإنجليزى (ولفظه بتريس اليونانى) . ويبدو أن أول من وصف به هو جيجيس **Gyges** ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع المنزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى. وإذ كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث فى السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت فى الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحث على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء فى المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتنفق المال بسخاء فى تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله فى كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها فى العمل ، ومن ثم كان الناس حتى فى عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغيـيرات كثيرة ليجعل دمقراطية الأحرار قائمة شكلا وعملا .

٥ — قيام الدمقراطية

لما توفى پسستراتس فى عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق فى كسب حب أبنائه له . وقد وعد هپياس أن يكون عادلا عاقلا فى حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن فى هذا من الضرر أكثر من تبديد المال فى هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذى استقدم أنكريون Anacreon وسمنيدس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابنى پيسستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنت لهم فى كل شىء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هـذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليونانى الحقيقى يسير فى طريق وعر شائك لاستطال

حكم هپياس الهادئ حتى يصل إلى خاتمته السلمية الطبيعية . وكان أرستوچيتون Aristógeiton وهو رجـــل كهل قد كسب حب الفتى هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ « فى ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس(٩٠) ، ولكن هپاركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يحبوا الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتحبب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرستوچيتون بهذا اعتزم أن يقتل هپاركس ويعمل فى الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه فى هذه المؤامرة هرموديوس وغيره من الأثينيين (٥١٤) واغتالوا هپاركس وهو يعد العدة لموكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هپياس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن لينا Leaena عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فإنها قطعت طرف لسانها وبصقته فى وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم(٩١) .

وارتاع هپياس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروع إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكما طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان فى مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلا كاملا ، أن يطلبوا الآن ترف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دوياً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرستجيتون فى خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يحيكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الدمقراطية(*). ورأى الألكميونيون فى دلفى الذين نفاهم پيسستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

(*) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاسيس يمثلان هذه الطبقة فى رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيباس . ورشوا فى الوقت نفسه الناطق بلسان الوحى فى پيثيا لكى يعلن لكل من يستشيره من الاسپارطيين أن من واجب اسپارطة أن تقضى على حكومة الطغيان فى أثينة . وقاوم هيباس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديمونى ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوپجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ؛ ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، وافتداهم هيباس بأن قبل النزول عن الحكم والنفى (٥١٠) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليستنيز الباسل(*) ، أثينة ظافرين ، وفى أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختبر إسجوراس Isagoras فى الانتخابات التى أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليستنيز أحد المرشحين المنهزمين حرض الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسپارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسپارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليستنيز ، الشريف الألكيمونى ، ينشئ حكومة دمقراطية (٥٠٧) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية — ونعنى بها القبائل الأربع والبطون الثلثمائة والستين التى كانت تتولى زعامتها ، جرياً على التقاليد التى دامت مئات السنين ، أقدمُ الأسر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليستنيز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسيما آخر إقليمياً جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

(*) وهو حفيد كليستنيز طاغية سكيون .

منها من عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطئ ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التى كان يخلعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله إلهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم فى القسم الذى يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب فى العهود الأرستقراطية التى كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ؛ وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للدمقراطية التى أضحت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذى قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجوى (القواد) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى فى قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذى حل الآن مجلس صولون المؤلف من أربعمائة ، وجعلت له السلطات الهامة التى كانت لمجلس الأريوپجوس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا فى المجلس القديم دورتين . وفى هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النيابى استبدل بالمبدأ الارستقراطى القائم على شرف المحتد ، وبالمبدأ البلوتقراطى القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتيحت لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب فى أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذى كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التى تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ،

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلستها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو الثيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لايختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرد من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليستنيز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فمن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقترع على نفى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه(*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن المنفى لم يكن يلحقه من جرائه عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الدمقراطية لقطع « أطول السنابل[٩٢] » . ولم تسئ الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

(*) وقد أنشئ نظام كهذا فى أرجوس ، ومجارا ، وسرقوسة .

. . .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التى مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به فى أثينة إلا فى إخراج عشرة أشخاص من أتكا .

ويقال إن كليستنيز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا فى واقع الأمر لا نعرف تاريخه فى آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع فى لألاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر فى أثينة دستوراً دمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الدمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل فى ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم ير قط فى تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتباط بهذه المغامرة التى تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وباعتدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية فى العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يتزعمون بلاد اليونان كلها فى الآداب والفنون ، بل فى السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

(*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب فى المراحل الأولى من الدمقراطية الأمريكية والفرنسية .

هم أنفسهم ، وأن يحبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التى كانت تمثل وحدتهم وسلطانهم ، والتى تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان : ولما همت أعظم إمبراطورية فى ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ، نسيت أنها سيقاومها فى أتكا رجال يمتلكون الأرض التى يفلحونها ، ويسيطرون على الدولة التى تحكمهم . وكان من حسن حظ بلاد اليونان ومن حسن حظ أوربا أن كليستنيز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون باثنى عشر عاماً .